المنبر المغربي من منظور المستشرقين الفرنسيين

أ.براهيمي فايزة
قسم الآثار جامعة تلمسان

لقد اعتاد المستشرقون ومن تبعهم القول بأن العرب لا دراية لهم بفن العمارة والزخرفة كما أن عمائرهم وفنونهم جاءت من الفنون القديمة المختلفة من فن بيزنطي وساساني وروماني ومن بين هذه الموضوعات الفنية المنابر، التي لفتت انتباه الباحثين الأجانب فحاولوا دراستها من زاوية ضيقة قصد أرجعها إلى أصول سابقة لظهور الإسلام. ولهذا فالمنابر المغربية لم تحظ بدراسة وافية تجلي تطور الأساليب الفنية والصناعية ومدى تأثرها وتأثيرها في الأساليب الأخرى التي سادت الأقاليم الإسلامية.

لقد تعددت المنابر الأثرية في العالم الإسلامي لذا سوف نقتصر حديثنا حول موصلنا إلينا من بلاد المغرب أولهما كأقدم نموذج في المغرب الإسلامي منبر القيروان ثم منبر الجزائر العاصمة. ومنبر القرويين بفاس.

1- المنبر لغة : كلمة منبر مشتقة من لفظة نبر بالكلام هو الهمز، فالنبار هو فصيح الكلام والنبرة رفع الصوت عن خفض[1].

2- المنبر اصطلاحا: المنبر عند العامة على أنه محل مرتفع يرتقيه الخاطيب أو الواعظ يكلم منه الجمع.

رأي المستشرقين في أصل المنبر:

يتبين من دراستنا أن المستشرقين استندوا في ترجيح رأيهم على أن المنبر بمثابة صفة العرش وعلى حد قولهم أن محمد (ﷺ) لم يتخذ منبرا إلا عندما أصبح رجلا عظيما يستقبل السفارات بصفة مستمرة من جميع الجهات وأبو بكر خليفته يتلقى فروض الطاعة، وسار الولاة فيما بعد على نفس المنوال، فكانوا يرتقون المنبر عند حصولهم على منصب جديد في أحد الأقطار المفتوحة. وأنه مجرد موضع يجلس عليه النبي وخلفاؤه في المواسم والأعياد، وبذلك كان نوعا من العرش المرتفع[2]

كما ذكر أحد المستشرقين من بينهم كيبل Quibell بأن أصل المنبر الإسلامي قد أتى من المنبر المسيحي الذي عثر عليه في أحد الأديرة بصقره والذي أرخ في القرن السادس الميلادي. ولكن هذا التاريخ ليس له أي سند تسجيلي زخرفي أو معماري[3]. غير أن قولفان Golvin يشير في أحد مؤلفاته بأن هذا المنبر يتركب من ستة أدرج وهو مخالف لمنبر الرسول الذي كان منخفضا، وبناء عليه فهو ليشبهه[4] كما يتفق كل من قولقان وبوركارد على أن المنبر اتخذ عدة وضائق مختلفة من عهد إلى أخر ففي عهد الرسول أرتبط المنبر بالسلطة الروحية أو الدينية أما في عهد الخلفاء فقد استعمل في السلطة الزمنية[5].

إن الأفكار التي تزعمها المستشرقون والتي ترجع أصل المنبر الإسلامي على غرار منابر الكنائس المسيحية في شكلها العام وعلى أنها اتخذت صفة السلطة أو لحكم، قد وجدت انتقادات ومعارضة شديدة من قبل بعض الباحثين العرب

فيذكر فريد الشافعي ردا على أقوالهم بأن منبر الدير بصقرة هو اقتباس من المنبر الإسلامي وليس العكس كما تذكرنا القصص....، كالأسطورة التي رويت عن منبر الرسول (ﷺ)، وما جاء فيها من ذكر باقوم النجار الرومي أو الحبشي، الذي قام بانجازه مما لا يجعل لا مثال تلك القصص قيمة حقيقية يعتمد عليها بل هي أساطير كان بتناقلها المؤرخون العرب بغير روية، الواحد عن الآخر. وقد يصل الأمر إلى أصل مدسوس عن مؤرخ مسيحي أو يهودي[6] ومن جهة أخرى يلخص الشافعي في قوله، أن مظهر العظمة هي صفة بعيدة كل البعد على أن يوصف بها الرسول (ﷺ) وخلفاؤه والمسلمون بوجه عام، قبل تأسيس الدولة الأموية[7].

ويري عبد العزيز مرزوق بأن أراء المستشرقين تتسم بالغلو والبعد عن الحقيقة، فلم يكن النبي بحاجة إلى العرش لكي يستقبل الوفود، فقد كان يستقبلهم قبل أن يصنع له المنبر. وبساطة المنبر على حد وصف المؤرخين لها الحجة الكافية لآن تنفي عنه صفة العرش التي كان يتخذها الملوك قبل الإسلام[8].

إلا أن صناعة أول منبر للرسول (ﷺ)، بقي موضع غموض وتضارب للأفكار حول أصل اشتقاقه، ولذا وجبت دراسته علي أسس علمية دقيقة، لا تمكن المستشرقين من التشكيك في أصله، فكل ما قاله المستشرقين لا يتضمن الحقيقة، وبالتالي فأقوالهم فيها مغالاة ومبالغة.

إن مناقشة أصل المنبر وتطوره في فجر الإسلام، وفي فترة مبكرة منه قد تجاوزت الحدود من ناحية التناقض والاهتزاز في منهج البحث، ويتضح ذلك كله من

خلال الروايات والأساطير المنقولة. ولهذا عملنا على الاعتماد على السيرة النبوية الشريفة، والتي منها استنبطنا دوافع انجاز المنبر.

لقد اتخذ الرسول (ﷺ) منبرا بعدما كان يلقي خطبته وهو متكئ على جدع نخلة، وقد صنع له منبرا من خشب الأثل، لكن الفقهاء احتفلوا حول دوافع انجازه. فمنهم من يرى أنه جاء نتيجة كثرة عدد المسلمين وصعوبة سماع الخطبة عن بعد مما أدى إلى ضرورة وضعه. ونستدل على ذلك بالحديث التالي: (عن ابن سعد الساعدي عن أبيه قال أن النبي (ﷺ) كان يقوم يوم الجمعة، أذا خطب إلى خشبة ذات فرضتين. فكان يتكئ عليها فقال له أصحابه يا رسول الله، إن الناس قد كثروا فلو اتخذت شيئا تقوم عليه، وإذا خطبت يراك الناس. فقال لهم ما شئتم.....)

أما الدافع الأخر لاتخاذ المنبر فقد جاء نتيحه للتطور الطبيعي، حيث أن الرسول (ﷺ) كان في بعض الأحيان يطيل الخطبة وهو قائما، مما عجل إلى اتخاذ منبرا له. ونستدل على ذلك عن أبي هريرة قال: حدثني محمد بن عبد الرحمن: كان رسول الله (ﷺ) يخطب إلى الجذع في المسجد قائما فقال (إن القيام قد شق علي فقال له تميم الداري ألا أعمل لك منبرا كما رأيت يصنع بالشام. فشاور الرسول (ﷺ) المسلمين في ذلك فرأوا أن يتخذه)[9]. وبالفعل صنع له أول منبر في الإسلام من خشب الأثل وكان النبي يقعد في أعلى درجة ويضع قدميه على الدرجة الوسطى. ولما أصبح أبو بكر خليفة المسلمين قعد على الدرجة الوسطى تأدبا ووضع قدميه على الدرجة السفلى ولما تولى الخلافة عمر ابن الخطاب قعد

على الدرجة السفلى ووضع قدميه على الأرض، وبمجيء عثمان فعل في أول الأمر كما فعل عمر (رضي الله عنه) ولكنه رأى بعد ذلك أن يجلس على الدرجة العليا التي كان يجلس النبي (ﷺ) من قبل. وضل هذا المنبر موجودا حتى عهد معاوية بن أبي سفيان، فزيد فيه من أسفله فصار له سبع درجات أو تسع مع اختلاف في أقوال المؤرخين[10].

وبعد الفتح الإسلامي يعد قرة بن شريك أول من زود مسجد عمرو ابن العاص بمنبر، لذلك يعتبر ثاني منبر بعد منبر الرسول (ﷺ) بالمدينة. ويؤكد ذلك ابن الدقماق أن المنبر لم يكن معروف قبل سنة 132هـ، أي قبل منبر قرة بن شريك ومن قبله منبر الرسول (ﷺ)[11]. ونستخلص من هذا على أن منبر الرسول (ﷺ) يعد النموذج الأول والأخير، حيث سارت على منواله المنابر الأخرى في العالم الإسلامي وخير مثال على ذلك منبر القيروان* الذي يعتبر أقدم منبر بقي يصارع صروف الدهر، فهو يمثل أروع نموذج للحشوات الخشبية المنقوشة ذات القيمة الفنية العالية.يصل علو المنبر وطوله 3.90م يتكون من 252 حشوة[12]، به 11 عشرة درج موصل للمقعد. أما ريشتي المنبر فجات على شكل مثلث قسمت إلى وصلات أو حشوات مختلفة، تزدان بزخارف متنوعة محفورة حفرا عميقا.

إن التطور الذي عرفته الفنون المغربية لم يدرس من زاوية الابتكارات التي أبدعها الفنان المغربي، بل إننا نجد المستشرقون يتناولون هذه الفنون وهم مجتهدون في تقصي كل صغيرة وكبيرة يتميز بها الفن المغربي ولكن محاولة منهم إثبات تقليد الفن المغربي للفنون القديمة السابقة. حيث يرى قولفان Golvin من خلال دراسة

بعض النماذج المنقوشة على أنها مستوحاة من تقاليد ساسانية وهذا من خلال شكل الأجنحة والأشكال الزهرية التي تتفرع منها زخرفة نباتية محورة وأوراق العنب هذه الموضوعات المحلية للحشوات قد وجدت في نواحي بغداد، وهو فن معقد جمع بين التقاليد المحلية المستمدة من الحضارات المجاورة ذات أصول الفن اليوناني اللاتيني.

أما بول سباك فيرى أن هذا النوع من الزخرفة ناتج عن تواجد أثار فنانين أجانب، منهم من هو من إفريقيا ومنهم من قدموا من بلاد الرافدين، بحيث يقول وقد برزت هذه الزخرفة في عدة أشكال منها على شكل خطوط مستقيمة أو منحنية تتشابك مشكلة شبائك متقاطعة منها السداسية الزوايا والنجمية على شكل حلزوني والدائرية على شكل زهري المتقاطعة على شكل سفاستيكا** وهذا يذكرنا بالفسيفساء السومارية أو الدرابزين الحجري للبازليكا البيزنطية[13]. (الشكل1).

مقابلة لهذه الآراء الأستشراقية يمكن القول أن هذا الفن استفاد من التقاليد المحلية واعتمد عليها أول نشأته ثم استعان بتقاليد البلدان الأخرى، وأخذ يبلور كل هذه التقاليد، ليخرج لنا فنا جديدا له طابعا خاصا، و لم يخرج هذا الفن في شمال إفريقيا عن هذه القاعدة. والدليل على ذلك هو أن طريقة الحشوات هي صناعة لم يعرفها القدماء قبل الإسلام في صنع التحف الخشبية، فالطرق القديمة في زخرفة هذه التحف تقوم على التلوين بالأصباغ أو حفر الزخارف على الخشب أو تطعيمه. و لم تظهر طريقة استعمال الوصلات إلا بعد الإسلام، فطريقة الصنع

وتجميع الحشوات ابتكرها النجار المسلم بمصر في الغالب، ثم ذاعت في بلاد العالم الإسلامي[14].

كما لم يسلم ثاني أقدم منبر في المغرب الإسلامي الموجود بالجامع الكبير بالعاصمة الذي يرجع للفترة المرابطية والذي مازال باقيا إلى اليوم محتفظا بزخارفه النباتية والهندسية المتسمة بروح الإبداع والذوق الفني الذي بلغ الذروة في عهد المرابطين على أن عناصره الزخرفية هي الأخرى مستوحاة من الزخارف البيزنطية من خلال التشابكات الهندسية والزخارف النباتية المتمثلة في ورقة الأكنتا وورقة العنب[15] وهكذا ورغم هذا التأثير الزخرفي الذي لا يمكن إنكاره على أن الفنون الإسلامية المغربية قد انتقلت من أصول الفن القديم إلى فن صاغته الروح الإسلامية عرف بالفن المغربي لتميزه عن باقي الفنون الأخرى القديمة بالتجريد والتحوير للعناصر الطبيعة وميزة ملأ الفراغ المعروف لدى المستشرقين بمصطلح (Horor Vacui) التي لم تكن معروفة من قبل.(الشكل2)

أما منبر القرويين*** يعتبر ثالث أقدم نموذج في المغرب الإسلامي الذي يرجع إلى العصر المرابطي المؤرخ في شعبان 1144/538م[16] وقد حظي هذا المنبر بعناية سائر الملوك اعتبروه مجلبة لحسن الذكر ونباهة الشأن، وقد سعوا لاكتساب هذه المأثرة ولو ليوم واحد حتى لا تفوت عليهم الفرصة[17] ومازال هذا المنبر محفوظا إلى يومنا هذا بجامع الكتبية بمراكش. إن نضرة المستشرقين الفاحصة المدققة للعناصر الزخرفية النباتية تشير إلى ذلك التزاوج بين الفن المغربي والأندلسي معا من خلال تفريعات الأوراق المتنوعة والمنجزة بحفر أو نقش مائل

ولكن تظهر بدون تفريعات لأكانتا فالمروحة المزدوجة وجدت بها حراشيف من كيزان الصنوبر وهي عناصر محلية لاختلافها عن المنقوشة على الجص بالمسجد الذي امتاز به الناقشين الأندلسيين[18] (الشكل3).

غير أن عبد الهادي التازي لا يوافقهم الرأي القاضي بكون المنبر قد صنع من طرف نقاشين أتدلسين، ويرى أن فاس منذ ارتباطها بتاريخ الأندلس وبغير الأندلس حلت مدرسة لشتى الصنائع، وهذا المنبر بالذات كان عمل من علماء فاس ومشايخها المعروفين وقد استدل بقوله أن الموحدين عندما أرادوا تشيد منارة اشبيلية سنة 527هـ، استقدموا لها عرفاء وصناع من مدينة فاس[19]. وبالرغم من هذا التضارب إلا أننا نرى أنه لا توجد أية إمضاءات تثبت أن المنبر قد صنع في الأندلس أو المغرب وبالتالي تبقى مسألة تأريخه ومكان انجازه مطروحة للبحث. ومما يمكن الإشارة إليه أن هذا التأثير الزخرفي هو فن أندلسي لا يمكن إنكاره، كما لا يمكن نفي التزاوج بين الفنين الذي نتج عنه فن مغربي أندلسي بالإضافة إلى الوحدة السياسية التي تربط الأندلس بالمغرب في العهد المرابطي.

ختاما أن ظاهرة التقليد هاته إن وجدت لا تحط من قيمة الفن الإسلامي على الإطلاق بل الرأي مقاله عبد العزيز سالم (إن قيمته في ذاته لا في منبته).

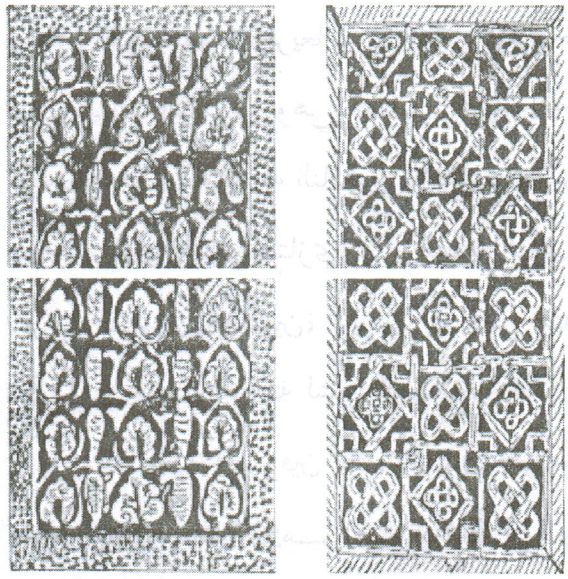

الشكل1: زخارف نباتية وهندسية لمنبر القيروان

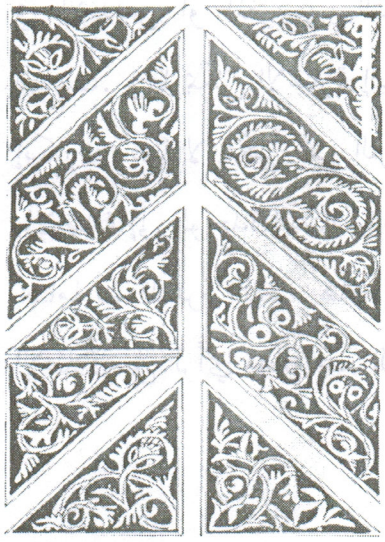

الشكل 2: زخارف نباتية مزدانة بمراوح نخلية للجامع الكبير العاصمة

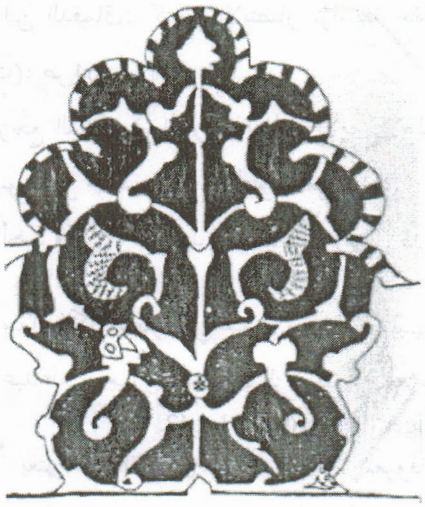

الشكل3: رسم تصوري لمسند منبر القراويين

الهوامش

[1] ابن منظور: لسان العرب، تحقيق جمال الدين أبو الفضل محمد. الجزء الخامس، طبعة بيروت 1956، ص189.

[2] فريد الشافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للنشر القاهرة، طبعة 1970، ص627.

[3] نفس المرجع، ص 631.

[4] Golvin: la mosquée ses origines sa morphologies ses diverses.

[5] Titus Burckhardt: l'art de l'islam, édition Sindibad, paris, p136.

[6] فريد الشافعي، المرجع السابق، ص633.

[7] نفس المرجع، ص627.

[8] عبد العزيز مرزوق: كتاب الفن الإسلامي، تاريخه وخصائصه. مطبعة أسعد، بغداد، 1965، ص43.

[9] ابن سعد: الطبقات الكبرى المجلد الأول. تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1990م، ص249.

[10] عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق، ص42.

[11] ابن الدقماق: كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار، تحقيق ابن ايدمر العلائى، طبعة بيروت، (دت)، ص64.

* يرجع الفضل في انجاز هذا المنبر الأمير الاغلبي "أبو ابراهيم أحمد". وأرخ المنبر سنة 248هـ وهو مصنوع من خشب الساج المجلوب من بغداد.

[12] أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف بمصر القاهرة، 1961، ص19.

[13] Golvin (L), op cit, p226.

** سفاستيكا: شعار ديني هندي يرمز له بصليب معقوف.

[14] عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس، طبعة بيروت، (دت)، ص15.

[15] Marçais G: la chaire de la grande mosquée d'Alger (hesperis)1921, p42.

*** يعتبر منبر القرويين من أجمل المنابر المعروفة وأكبرها في بلاد المغرب الإسلامي. تولى المغاربة على تركيب أطرافه وهو يحتوي على تسع درجات يصعد إليه الخطيب بين ساريتين من عود ثمين من خشب الابنوس وهو خشب أسود يستعمل في أشغال التطعيم وحواف المساطر.

[16] Terrasse H: Mosquée d'Alkarawin a Fes, volume 3, 1968, p 49.

[17] عبد الهادي التازي: جامع القرويين مسجد وجامعة بمدينة فاس، المجلد الأول، دار الكتب اللبنانية، بيروت، 19720، ص76.

[18] Terrasse H: op.cit, p 49.

[19] عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص86.